لماذا نقوم بتدريس الفن في مرحلة الطفولة.

مقال وجهة نظر

* مصطفى عبد العزيز
* أستاذ علم النفس ومادة تحليل التعبير الفني لفنون الأطفال والبالغين
المتفرغ كلية التربية الفنية جامعة حلوان
* البريد الإليكتروني: drmostafama@hotmail.com

التعبير الفنى سمة من سمات الإنسان من خلاله يعبر عن أفكاره وانفعالاته وأحاسيسه وهو فى جملته فعل سلوكى يمس الجانب التعبيرى يمكن ترجمته فى أشكال كثيرة متنوعة. وتزداد أهمية العناية بتعبيرات الأطفال الفنية من كون الطفولة لها أهميتها فى بناء المجتمع وتحقيق تواصل الأجيال وقد طالعتنا الصحف فى الآونة الأخيرة ببعض المطالبين بحذف مادة التربية الفنية من المقررات التى تدخل ضمن المجموع، كما أفسحت الصحف مجالا لبعض المتخصصين فى التربية الفنية للرد وفى ضوء ذلك أود أن القى بعض الأضواء على الدور الهام الذى تقوم به مادة التربية الفنية فى التعليم وهو كما يلى:

1. الإسهام فى تعليم النشئ التعليم المكتمل، فإذا كانت موضوعات الحياة تقدم إلى تلاميذنا من الزاوية العلمية أو الوظيفية، فإن التربية الفنية تقدم هذه الموضوعات من خلال حقائقها الجمالية، وذلك تتعاون المناهج الدراسية علمية وفنية فى تقديم العالم بزاويتيه إلى أبنائنا. أما التركيز على الزاوية العلمية أو الوظيفية دون الزاوية الجمالية يجعل إدراكنا لهذا الكون من حولنا إدراكًا ناقصًا ومثال ذلك الطفل الذى يقدم له المعلم حقائق علمية عن نبات معين من حيث مكوناته، وزراعته، فوائده، سوف لا ينظر إلى هذا النبات إلا من خلال هذه الزاوية، إلا إذا أضاف معلم الفن حقائق أخرى فنية عن هذا النبات من حيث الوانة، وملامسه، وحركته، وشكله، ونسبه، وإيقاعات خطوطه، ومن هنا تكتمل الخبرة وتنعكس على نظرة أطفالنا إلى هذا النبات وبمرور الوقت ربما ينسون الحقائق العلمية ويبقى فى إدراكهم ما يتعلق بجمال هذا النبات.
2. يترتب على النقطة السابقة حقيقة أخرى وهى أننا عن طريق برامج الفنون التى تحتوى على طرق ومصطلحات لتفهم الفن وأشكاله، نكون قد ساعدنا على إعداد وتربية الجمهور الفنان، والمستهلك الفنان، أو الناقد الفنان الذى سوف لا يرضى بأية مظاهر للقبح من حوله ويفرض على البيئة الصبغة الجمالية، ويطرد من أمامه أية سلعة لا تقدر إحساسه بالجمال، وبذلك نكون قد ساعدنا أبناءنا أن يحيوا حياة سعيدة لأننا أعددناهم لكى يصدروا أحكامًا جمالية صحيحة.
3. إن ممارسة الأطفال للفن تكسبهم كثير من ممارسة وتوظيف وتنمية العمليات النفسية مثل الملاحظة والانتباه والإحساس والإدراك، والاختيار، والتعميم والقدرة على فهم المعلومات البصرية، وكل هذا الاكتساب يمكن توظيفه فى مواقف الحياة سواء المتصلة بالتعليم داخل المدرسة أو خارج المدرسة، ولذلك تعتبر التربية الفنية بطريق غير مباشر جسر لتعليم الطفل العلوم الأخرى فالفن فى مصر القديمة كان طريقنا لفهم الحياة بها وعاداتها وتاريخها .. ولم يبق من مصر القديمة إلا فنونها، كذلك تعتبر التربية الفنية وسيلة غير مباشرة لتكيف الفرد، ولتأكيد هذا الدور لاحظ فقط انهماك الطفل أثناء عمليات تركيب قطع الميكانو أو أثناء الرسم كم من الوقت يستغرقه فى ذلك؟ وهل لا يتطلب كل هذا الوقت انتباه الطفل؟ وهل زمن الانتباه الطويل هذا لا يتفوق على المعدلات التى قدمها لنا علماء نفس النمو؟
4. ويمكن النظر إلى التعبير الفنى عند الأطفال من الجانب النفسى، فتعبيرات الأطفال الفنية تعتبر وسيلة وأداه لكشف وقياس جوانب شخصية كثيرة، وهى فى ذلك تشبه المقاييس الاسقاطية للشخصية، فحالة الطفل أثناء عملية التعبير الفنى أشبه بالتداعى الحر فى مجال علم النفس التحليلى، وأشبه بالنشاط اللعبى الذى يهيمن على مرحلة الطفولة حيث التلقائية وتأكيد الذات، والاستمتاع، لذا فمن خلال فنون الأطفال وتعبيراتهم الحرة يمكن الاستدلال على عوامل كثيرة، وحقائق هامة تدور حول مدى توافق الطفل الحركى، مدى تمركزه حول الذات، مدى انفتاحه على البيئة المحيطة، نوعية اهتماماته، مستوى إدراكه (الدرجات اللونية/ نسب الأشياء/ تفاصيل الأشكال ...)، جوانب النقص فى خبراته، مخاوفه، أفكاره، طموحاته، تأثير الثقافة، وكل الأشياء ذات التأثير الإيجابى أو السلبى على الطفل، ولذلك كان العلاج عن طريق الفن وسيلة هامة فى العلاج النفسى، إن الطفل الذى لا يجيد اللغة اللفظية التى يعبر بها يجد لغة أخرى أيسر وأقرب لتوصيل أحاسيسه وأفكاره.
5. إن السماح للطفل بممارسة الفن هو سماح له أن يكون عضوًا مؤثرًا فى بيئته المحيطة، فطوال الوقت هو شخص متأثر بتعاليم الأباء والكبار والمعلمين إلا أنه عندما يدخل حصة الفن تتاح له فرصة أن يعبر ويؤثر فى الآخرين، وإذا كانت العلوم تهدف إلى أن تعمم حقائق ثابتة مثل 2 × 2 =4، وعلى كل الأطفال أن تتشابه إجاباتهم على هذه المسألة، إلا أنه فى حصة الفن لا يهدف المعلم إلى إجابات متشابهة، فهو عندما يطلب من تلاميذه التعبير الفنى عن

موضوع من الموضوعات نجده يساعدهم على أن يعبر كل منهم عن موقف معين وبطريقة أو أسلوب يختلف عن الآخرين.

6. ان الرؤية العلمية بشكلها الواسع، وإدراك الحياة بشكل عام لا تتم إلا عن طريق تعلم الفن، وذلك بسبب العمليات التي يمارسها الفرد والمصاحبة للتعبير الفني من تنمية الملاحظة، والاختيار، والتعميم والقدرة علي فهم المعلومات البصرية.
7. عندما تعطي الطالب معلومات أو عمليات، أو طرق فنية يستطيع عن طريقها الحكم الجمالي الصحيح فإننا نساعده علي أن يحيا حياة سعيدة يستفيد من حياته، وبالعكس فالفرد الذي لا يستطيع إعطاء أحكام جمالية صحيحة لا يستطيع الاستفادة من حياته، اذن فالتفضيل الجمالي جزء أساسي في حياة الإنسان.
8. لتنمية قدرة الفرد علي الإبداع، ولهذا نري أن بعض المناهج – كما في الولايات المتحدة - تشتمل علي إتاحه الفرص علي مدي واسع لممارسة وتجريب الخامات، إن الخبرة الأساسية لتحقيق غايات الفرد تستند علي خبرته الفنية حتي لو شاء حظ هذا الفرد أن لا يتخرج فناناً بعد ذلك. إن طبيعة الممارسة في الفن تختلف عن بقية الممارسات في المواد الدراسية الأخرى. فالفرد فيها عامل مؤثر يستطيع أن يعلن آراءه، بعكس بقية المواد الأخرى حيث يكون الفرد متأثر فقط بحقائق العلوم التي لا تقبل التغير وإبداء الآراء في ثباتها.
9. إن دراسة التعبير الفنى للأطفال تفيد فى:

أ. توجيه المعلم إلي تفسير التعبير الفني للأطفال بطريقة علمية صحيحة، فيقيم توجيهه الفني والتربوي والنفسي علي ضوء حقائق لا وجهات نظر ذاتية.
ب. تفيد المحلل النفسي، لدورها في عملية تشخيص بعض الحالات أو الأمراض النفسية، ولعلاقتها بقياس القدرات المختلفة ومنها القدرة العقلية العامة (الذكاء).
ج. تفيد الوالدين، في فهم ما ينتجه أطفالهم، فيتقبلاه ويحاولان مساعدتهم وتوجيههم التوجيه السليم.

وبالرغم مما سبق نجد البعض يتساءل لماذا نقوم بتدريس الفن للتلاميذ وهو فى الأصل يعتمد على موهبة؟ **وللإجابة على هذا التساؤل أقول:**

1. من الذى قال أن التعبير الفنى وحده يلزمه موهبة؟ أن جميع المواد الدراسية توظف كل منها خاصية سلوكية، وهذه الخاصية السلوكية من الممكن توزيعها على منحنى ناقوسى فنرى قلة من الموهوبين وقلة من المتخلفين والأغلبية من المتوسطين، وعلى هذا فأصحاب المواهب إذا كانوا قلة فى مجال الفنون فهم قلة أيضًا فى مجال اللغة العربية أو الأحياء أو أى فرع من فروع العلم، فهل يقتصر التدريس فى المدارس على الموهوبين فى الفروع العلمية، حتى يقتصر التدريس على أصحاب المواهب الفنية فقط؟
2. حتى إذا أثار البعض أن ممارسة الفن للموهوبين فقط فالسؤال هنا: كيف يتم الكشف عن الموهوبين؟ وللإجابة على هذا السؤال أننا لا نستطيع الكشف عن الموهوبين سواء فى مجال الفنون أو العلوم إلا عن طريق الممارسة الفعلية لهذه الأنشطة وعلى هذا من الضرورى أن يكون الفن ممثلا ضمن المناهج الدراسية فى المدرسة.

إن المتتبع لسلوك الأطفال فى الفن وسلوكهم فى الأنشطة العلمية الأخرى يجد أن سلوك الأطفال فى الفن كظاهرة سلوكية لا تجد حقها من الاهتمام الاجتماعى ففى الوقت الذى تهتم فيه الأسرة مثلا بما يحدثه طفلها من أثار صوتية (منذ ميلاده) لا تحمل صفة الدوام بقدر ما تحمل صفة الأمر، وتراعى هذه الأصوات حتى يتمكن الطفل من لغته اللفظية، وتتولى المدرسة والجامعة بعد ذلك رعاية هذه اللغة وبصبر، نجد الأسرة – أيضًا – لا تهتم بالآثار الخطية (الرسوم) التى يحدثها الطفل بالرغم من أن هذه الآثار تظل لاطول فترة ملموسة ويسهل ملاحظتها، وتمثل رسالة موجهة من الطفل إلى الآخرين، وامتدادًا لأحاديث أجداده الفراعنة.

وإذا افترضنا أن الأسرة قد اهتمت بهذا النشاط ولا نضمن أنها سوف تقوم بتوجيه طفلها توجيها علميًا سليمًا، فما أكثر أولياء الأمور الذين يقومون بمساعدة أطفالهم فى الرسم اعتقادًا منهم أنه مثل أى مادة أخرى تتطلب المساعدة من الآخرين، إننا نرحب بمساعدة أولياء الأمور ولكن المساعدة تكون بهدف تمكن الطفل نفسه من التعبير عن خبراته ووجهة نظره.

3. نحن نقوم بتدريس الفن لتلاميذنا أيضًا لا من أجل الإحساس بالجمال والتعبير عنه فقط بل لهدف أخر هو التذوق الفنى، فالاستعدادات الفنية تكمن وراء هذين النشاطين "التعبير الفنى أو الإبداع الفنى، والتذوق الفنى" ولو نجحنا فى

خلق جيل متذوق للفن نكون قد حققنا الكثير فعلى سبيل المثال كم منا يتذوق فنون لعبة كرة القدم ويحرص على مشاهدتها؟ وكم منا يمارس هذه اللعبة؟ ووزارة التعليم لا تبخل بالجهد فى مجالى التعبير الفنى أو التذوق الفنى عن طريق توفير الكتب القيمة والمسابقات الفنية العديدة.